

للله بحث التأسيس

(١)

فقهاء المذاهب السبع

عبد الله بن عبد الله بن عبد الله بن مسعود

تأليف

عبد المنعم الهاشمي

دار ابن تير

دمشق - بحريت

www.dawahmeme.com

١٤٢٣ - ١٩٩٣

(٥) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْيَةَ بْنِ مُسْعُودٍ

- ١ -

الإطار العام

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُمْرَ الَّذِي أَنْزَلْتَ مِنْ عَنْدِهِ السُّورَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَكْمَلَ بَعْدَ يَا عَزِيزُ
إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ
فَكُنْ عَلَى حَدِيرٍ قَدْ يَنْفَعُ الْحَذَرُ
وَاصْبِرْ عَلَى الْقَدَرِ الْمَحْتُومِ وَارْضُ بِهِ
وَإِنْ أَتَاكَ بِمَا لَا تَشْتَهِي الْقَدَرُ
فَمَا صَفَا لِأَمْرِيٍّ عَيْشٌ يُسْرُ بِهِ
إِلَّا سَيْبَعُ يَوْمًا صَفْوَةَ كَدْرٍ^(١)
«من قصيدة أرسلها لعمر بن عبد العزيز»
هكذا يكون الفقيه.. نعم الشاعر أنت، ونعم الناصح أنت،
بل أنت نعم الفقيه، فأنت بحر من بحور العلم كلما جلس
إليك تلاميذك وجدوا عندك علمًا طريفاً.

هذه الكلمات هي القليل من الكثير التي كنا نود أن نبدأ بها

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٤٧٧.

مسيرة عبيد الله بن عبد الله بن مسعود، لقد كان رجلاً مأموناً الحديث، إماماً للفقهاء وشيخ المحدثين. إن للصلاح والتقوى رجالاً أشداء، وعبيد الله بن عبد الله أحد هؤلاء الرجال، صاحب عزم من علمه وتقواه، وصاحب فضل من نصحه وفقيه، تعلم القرآن وعلمه فكان من خيار التابعين، شاعر ليس من هؤلاء الذين يتبعهم الغاون، والذين تراهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون.

ولإنما عبيد الله بن عبد الله من هذا النوع من الشعراء الذين ينطبق عليهم وصف القرآن الكريم حيث يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَاتَّصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلِبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١).

هذا هو شاعرنا عبيد الله بن عبد الله؛ منهجه متبع حسان بن ثابت في شعره الذي يخدم دينه ودعوته، ولتكن ذلك الإطار بداية سيرة الفقيه عبيد الله رضوان الله عليه.

(١) سورة الشعراء الآية: ٢٢٧ والذى يسبقها قول الله تعالى: ﴿وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ الآيات ٢٢٤ كما في ٢٢٦ من السورة.

نَسْبَهُ

هو الإمام الفقيه، مفتى المدينة وعالمها، وأحد الفقهاء السبعة، أبو عبد الله المداني.

وهو شقيق محدث شهير يسمى عون، حديث عن الرسول ﷺ كثيراً، وجده عتبة هو أخو عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل رضوان الله عليه، ولد في خلافة عمر بن الخطاب وقيل بعيداً عنها بقليل.

عاش معاصرأً للسيدة عائشة رضوان الله عليها، وحدث عنها كثيراً، وروى أيضاً عن مشاهير منهم أبو هريرة، وابن عمر، وأبو سعيد وميمنة بنت الحارث، والسيدة أم سلمة أم المؤمنين.

وقد تلقى أصول علمه عن ابن عباس رضي الله عنه فلازمه طويلاً، ويعتبر منهجه في الرواية والفقه في يسر ابن عباس ومرؤته؛ وإن كان روى عن عبد الله بن عمر، إلا أنه لملازمته ابن عباس زماناً طويلاً فقد انتهج منهجه.

كان رحمة الله عالماً ذهب بصره، كثیر الحديث ثقة، له فيه باع طویل^(۱).

(۱) طبقات ابن سعد ج ۵، سیر أعلام النبلاء، ج ۴ ص ۴۷۵، حلية الأولياء لأبي نعيم ج ۲ ص ۱۸۷، ۱۸۸.

هذه بطاقة تعريف به تختتمها باسمه كاملاً فهو: عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهمذاني، أحد فقهاء المدينة السبعة.

كان رضوان الله عليه يقول الشعر فيسأل عن ذلك فيقول:
رأيتم المصدر إذا لم ينفِس، أليس يموت؟

نعم لقد امتلاً صدره بالتفوى والعلم؛ ففاض شعراً وفقهاً وأبيلى غنى ذلك بلاءً حسناً، على الرغم من أنه كان ضريراً إلا أنه وُحِصِّفَ بكثرة الحديث وغزارته. كان لا يحفي شاربه جداً، يأخذ منه أخذًا حسناً، وعملاً بسنة رسول الله ﷺ «أطليقو اللحي، وقصرو الشارب».

كان رجلاً صالحًا وصفه معاصر له فقال: كان أعمش، وكان أحد فقهاء المدينة السبعة، ثقة، رجلاً صالحًا، جامعاً للعلم.

هذه الصفات الجامدة تحلى بها فقيهنا عبد الله بن عبد الله رضوان الله عليه، فجمع بين مظهر المسلم الصحيح بعلمه المفروض، ويتقواه الظاهرة في سلوكه مع تلاميذه ومربيه وشيوخه الأجلاء، حتى إن أشهر شيوخه وهو ابن عباس كان يخصه بالعلم عن زملائه وأقرانه لنجابته وفضاحته وصلاحه وتقواه، وأمانته فيما يحدث، لقد وُحِصِّفَ بأنه مأمون، وإمام من أئمة الفقه في عصر التابعين الثقات؛ لكنه انشغل بالعلم كثيراً، وكان متميزاً بأمور وصفها تلاميذه ومن تلقوا العلم عنه.

علمه

عندما جاء التابعون وجدوا أمامهم ثروة هائلة من الرواية التي تعلموها من شيوخهم صحابة رسول الله ﷺ، ووجدوا أيضاً ثروة ضخمة من الاجتهد الفقهي عن صحابة رسول الله، ولقد شارك عبيد الله بن عبد الله في جمع هاتين الثرعين، فشارك أولاً في جمع المروي من أحاديث رسول الله ﷺ، وجمع الكثير من أقوال الصحابة واجتهادهم، ولقد يُسر هذا الأمر لعبيد الله نظراً لعذريته لاستاذه وشيخه ابن عباس رضي الله عنه، وقد اعتبر عبيد الله أقوال ابن عباس حجة لمقامه في الوسط الصحابي الشريف وتلقيه عن رسول الله ﷺ.

ولقد كان لفقيئنا الشيخ عبيد الله مكانة عظيمة لدى ابن عباس رضوان الله عليهم أجمعين، حتى إن ابن شهاب الزهرى قال^(١): «كان أبو سلمة^(٢) يسأل ابن عباس، وكان يخزئ عنه وكان عبيد الله يُلطفه، فكان يضره عزاء^(٣)».

من حديث الزهرى السابق الذى كان معاصرأً لعبيد الله نشعر بان ابن عباس كان يخص عبيد الله عن غيره بالرواية لأنـه كان يجله ويجل علمه وفضاحتـه وكـيـاسـته، ولا شك أنـ عـيـدـ الله

(١) سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٧٦.

(٢) تابعى جليل وفقيه معروف.

(٣) يضره عزاء: أي يحفظ بالقليل.

كُفَّيْهِ مِنْ فَقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ وَشِيخِ مَحَدَّثٍ كَثِيرِ الْحَدِيثِ،
تَلَقَّى عِلْمَهُ كَسَائِرَ أَصْحَابِهِ عَنْ شِيوخِ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ ذُكِرَ ابْنُ
الْقَيْمُ (١) مَسِيرَةُ الْعِلْمِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَكِيفَ اَنْتَشَرَتْ عِنْدَهُمْ قَالَ:

«وَالَّذِينَ وَالْعِلْمُ وَالْفَقَهُ اَنْتَشَرُوا فِي الْأَمَّةِ عَنْ أَصْحَابِ ابْنِ
مَسْعُودٍ، وَأَصْحَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَأَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ،
وَأَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، فَأَمَا أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَعَلِمُوهُمْ عَنْ
أَصْحَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَمَا أَهْلُ الْعَرَاقِ
فَعَلِمُوهُمْ عَنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ».

مِنَ الْعِبَارَةِ السَّابِقَةِ نَشَعِرُ بِمَكَانَةِ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي يَتَسْمَى إِلَيْهِ
عَبْدِ اللَّهِ. لَقَدْ كَانَ جَدُّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مَمْنُونُ نَقْلِهِ فَقَهَاءُ
الْعَرَاقِ فِي الْكُوفَةِ وَغَيْرُهَا كَثِيرًا بَيْنَمَا أَخْذَهُ كَثِيرًا عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ لِمَلَازِمِهِ إِيَّاهُ كَمَا ذَكَرْنَا لَكُمْ لَمْ يَرُو عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
مَسْعُودٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَعَاصِرْهُ.

وَلَقَدْ وُصِّفَ (٢) عَبْدِ اللَّهِ بِأَنَّهُ كَانَ ثَقَةً، عَالَمًا فَقِيهًّا، كَثِيرًا
الْحَدِيثَ وَالْعِلْمَ بِالشِّعْرِ وَلَقَدْ تَحدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ عَنْ عِلْمِهِ فَقَالَ:
«مَا سَمِعْتُ حَدِيثًا فَطُّ فَأَشَاءَ أَنْ أَعْيَهُ إِلَّا وَعَبَّتْهُ».

هَكَذَا كَانَ حَافِظًا عَالَمًا، وَلَقَدْ شَهَدَ لَهُ تَلَامِيذهُ بِغَزَارةٍ عِلْمَهُ
وَطَرَافَتِهِ نَظَرًا لِاجْتِهادِهِ، فَلَمْ يَكُفْهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ قَدْرُ مِنْ

(١) فِي كِتَابِ أَعْلَامِ الْمَوْقِعِينَ جِ ١ صِ ١٦.

(٢) الرَّاقيِي، وَابْنُ سَعْدٍ جِ ٥ صِ ٢٥٠.

العلم، أو كُمْ من الحديث، وإنما أكثر وأكثر من الحديث والعلم، وقد نوَّه الزهري إلى هذه النقطة بالذات عندما قال: «ما جالست أحداً من العلماء إلا وأرَى أني قد أتَيْتُ على ما عنده، وقد كنتُ أختلف إلى عروة بن الزبير حتى ما كنت أسمع منه إلا معاذًا ما خلا عبد الله، فإنه لم آتَه إلا وجدت عنده علماً طريفاً».

مما سبق يتبيَّن أنَّ الرجل كان دائم الاطلاع والاجتهاد؛ حتى إنَّ ابن شهاب الزهري أحد تلاميذ مجلسه يقرُّ ويؤكِّد بأنَّه ما سمع منه علماً معاذًا أو مكررًا، حتى إنَّه قارن بينه وبين صاحبه عروة بن الزبير رضوان الله عليه.

ولقد كان للمعلم والعلماء مكانة سامية في المدينة، فالתלמיד خادم شيخه وأستاذه. وفي عصر التابعين كان التلميذ يعرفون قدر مجالس العلم ومكانة شيوخهم وهنا نجد أنَّ ابن شهاب الزهري أحد تلاميذ عبد الله بن عبد الله وأشهر من حَدَثَ عنه كثيراً ما يخدم أستاذه وشيخه عبد الله فيقول الزهري: «كنتُ أخدم عبد الله بن عبد الله حتى إني كنتُ أستقي له الماء المالح، وكان يقول لأهل بيته: من بالباب؟ فيقال له: غلامك الأعمش»!! هكذا أخلص التلميذ خدمة أستاذه رضوان الله عليه، فكان الأستاذ يُحدِّثه، بينما التلميذ يستقي له الماء من البئر.

من خلال هذه العلاقة أصبح التلميذ عالماً فقيهاً، وأنجز

من أستاذه كل ما يريد حتى وعى علمه، ولذلك برع ابن شهاب الزهري، وأصبح صاحب علم كبير، وتتابع العلم على يده فيما بعد فتخرج على يد ابن شهاب تلميذ عبيد الله، تخرج على يديه الإمام مالك إمام دار الهجرة وشيخها المستفتى في عصره، رضوان الله عليهم أجمعين.

— ٤ —

مع تلاميذه

عن أشهر تلاميذ عبيد الله بن عبد الله ابن شهاب الزهري كما سبق أن ذكرنا كيف كانت علاقتهما معاً، ولكن مما يذكر له ويغرس مكانته أنه كان معلماً لعمر بن عبد العزيز وأستاداً له، فكان ينصحه ويفقهه، حتى إنه وجه إليه النصح شرعاً كما صدرنا في بداية سيرة شيخنا عبيد الله إذ يقول له في رسالة شعرية ناصحاً ومعلماً^(١):

إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ
فَكُنْ عَلَىٰ خَذِيرٍ قَدْ يَنْقُعُ الْخَذِيرُ
وَاصْبِرْ عَلَى الْقَدْرِ الْمَحْتُومْ وَأَرْضِ بِهِ
وَإِنْ أَتَاكَ بِمَا لَا تَشْتَهِي الْقَدْرُ

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٧٧.

فَمَا حَصَّنَ لَامِرِيْءٍ عَيْشُّ بُشَّرٌ بِهِ
إِلَّا سَبَقَهُ يَوْمًا صَفَوَهُ كَذَرُ

خلاصة الأمر أن عمر بن عبد العزيز كان من أشهر تلاميذه رضوان الله عليهم أجمعين.

كان شيخاً يتسم بخلق رفيع، وسمات فاضلة، خاصةً مع تلاميذه، وكان منهم أيضاً علي بن الحسين ابن بنت رسول الله صلوات الله عليه وسلم الذي جاءه ذات يوم وهو يسألني لرسالة في علم، وكان عبد الله يطيل في حسلامه، ولا يُعجل عنده لأحد فجلس ينتظره وطال انتظار علي كثيراً، فعورت عبد الله في ذلك وسمع من قال له: يا عبد الله يأتيك ابن بنت رسول الله صلوات الله عليه وسلم فتحبسه هذا الحبس! فقال رحمة الله: «اللهم غفرأ، لا بد لمن طلب هذا الشأن أن يُعنِّي»^(١).

هكذا تكون أخلاق العلماء وحبائهم، تتسم بالرحمة والرأفة في كل ما يصدر عنها لأنها من عالم جليل والى تلاميذه أحلاه نجباء.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٧٨/٤.

روايته

من أشهر ما روى عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، ما رواه عنه تلميذه ابن شهاب رضوان عليه قال: «حدثني عبيد الله بن عبد الله، سمع ابن عباس يقول: جئت أنا والفضل على أتائِن يوم عرفة، والنبي ﷺ يُصلَّى بالناس، فمررنا على بعض الصف فتركتها عنها وتركتناها ترتع، ولم يقل لنا النبي ﷺ شيئاً»^(١).

وقد روى الزهرى أيضاً عن عبيد الله بن عبد الله عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من بات وفي يده غمر^(٢) فأصابه شيء، فلا يلوم من إلا نفسه»^(٣).

ومن هذا الحديث حض على غسل اليد من الزفر، ومن امتنع عن هذا وأصابه مرض أو شيء من نتائج هذا فلا يلوم إلا نفسه.

وقد روى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة مما روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول: «إن الله لم يقبض نبياً حتى يغترب».

(١) أخرجه مالك في الموطأ ج ١ ص ١٥٥، ١٥٦ عن طريق ابن شهاب الزهرى، وأخرجه البخارى ٥٧١/١ ومسلم (٥٠٤).

(٢) الغمر: الدسم والزفر من ريح اللحم.

(٣) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٦٣، وابن ماجه (٣٢٩٧).

وقالت فلما حضر الموت رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعها منه يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة» فقلت: إِذَا وَالله لا يختارنا، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا إن نبأ لا يقبض حتى يُخْرِه^(١).

هكذا تبين السبب الذي من أجله نطق الرسول ﷺ آخر كلماته على وجه الدنيا وهو يُخْرِه فاختار قائلاً: «بل الرفيق الأعلى من الجنة».

ومما حديث عبد الله بن عبد الله عن أبي هريرة رضوان الله عليهم إن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لي مثل أحد ذهباً ما يسرني أن يأتي عليّ ثلات ليالٍ وعندي منه شيء إلا شيء أرصله للدين»^(٢).

يفتَحُ أن ذكر مَنْ حدث عنهم فقيهُنا الشیخ وأشهرهم: عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأبو هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدري، والنعمان بن بشير، وميمونة بنت الحارث، وأم سلمة، وفاطمة بنت قيس رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد روى عنه أخوه المحدث عون، وتلميذه ابن شهاب الزهربي، وأبو الزناد

(١) حلية أبي نعيم ج ٤ ص ١٨٩ عن ابن شهاب الزهربي قال حدثني عبد الله بن عبد الله

(٢) الحلية لأبي نعيم ج ٤ ص ١٨٩

رحم الله عبید الله فقد قال عنه تلميذ من تلاميذه: «كان عبید الله بن عبد الله لا اشأهُ أن أقع منه على ما لا أحذه إلا عنده، إلا وقعت عليه».

كان غزير الرواية، متنوع علمه فيها، لا ينصب أمام تلاميذه ومُربديه أبداً، نضيف إلى ذلك تكرار قول الرواية عنه وتلاميذه ومعاصريه مع كثرة حديثه وروايته: إنه كان ثقةً وإماماً في الحديث والرواية رضوان الله عليه في حين أنه كان مقللاً في الاجتهاد والرأي، فلم يشتهر عنه من ذلك كثيراً، بل المشهور عنه أنه كان محدثاً كثيراً رضوان الله عليه.

— ٦ —

وفاته

في أواخر أيامه رحمه الله قال أبو الزناد: «ربما كنت أرى عمر بن عبد العزيز في أماته يأتي عبید الله بن عبد الله بن عتبة فربما حجبه وربما أذن له» هذا صورة لقدر الإمام الفقيه عند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي قال عن عبید الله فيما بعد: «لو أدركتني عبید الله بن عبد الله بن عتبة، إذ وقعت فيما وقعت فيه لهان عليّ ما أنا فيه»^(١).

هكذا حتى بعد مماته كان أمير المؤمنين يوَد لو أن أستاذه

(١) حلية أبي تعيم ج ٢ ص ١٨٩.

وشيخه ظل إلى جانبه يقتبه ويقدم له العون في إمارة المسلمين.

ولكن فيما بين العام الثامن والتسعين والتاسع والتسعين من الهجرة وافته المنية، فترك دنيانا، ورحل بجسده، وصعدت روحه إلى خالقها، إلا أن علمه الذي تركه ما زال بين أهل السنة متاراً يهتدى به، وما زال فقهه وفقه أصحابه وروايتهم الثقة تزدان بها بطون الكتب وعقول الحفاظ من الدعاة ومن رعية المسلمين الحرريصة على دينها وعلى سنة رسولها الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

ولم ينقطع عبد الله بن عبد الله عن الدنيا وإنما كواحد من فقهاء المدينة السبعة ظل علمه ينفع الناس ﴿فَإِنَّمَا الزُّبُدُ قَيْذَبٌ جُفَاءٌ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

رحم الله عبد الله فقيه المدينة المكثير من الحديث الثقة الإمام.

(٢) سورة الرعد ١٣/١٧.